مُقَدِّمَة

السلالة العثمانية الحاكمة سلالة فريدة من نوعها، من حيث إنها السلالة الذكورية الحاكمة الوحيدة التي استمرت دون انقطاع طوال أكثر من ٦٠٠ سنة. ولأنني أتشرف، بكل تواضع، بانتمائي لهذه السلالة، أعتقد أنه من المهم تماما أن يتعرف الناس اليوم بشكل دقيق على الدور المهم الذي لعبته، ليس في تاريخ الأتراك والإسلام فحسب، ولكن أيضا في تاريخ العالم كله. ومن بين السلاطين الستة والثلاثين الذين حكموا الدولة العثمانية كان هناك قادة عسكريون يمتلكون مهارة استثنائية، ورجالُ دولةٍ عباقرة، ورجال ذوو براعة رياضية كبيرة، وموسيقيون مهرة، وشعراء موهوبون، وخطاطون مشهورون. وقد جعل هؤلاء الحكام هدفهم الرئيس، -لقرون عدة،- أن يحموا رعاياهم ويرعوهم، وأن يدعموا رخاءهم، وأن يحموا دار الإسلام، وأن يعززوا من تطور الحضارة الإسلامية.

وعند التأمل في أسلوب حكم السلاطين العثمانيين نجد أن جميع الرعايا الذين كانوا ينتمون إلى أديان مختلفة، وأعراق مختلفة، ويتكلمون بلغات مختلفة، كانوا يُعطَون، طوال قرون من حكم السلاطين العثمانيين، الوسيلةَ والفرصة للتعايش بسعادة. وأعتقد أن طريقة الإدارة "الإنسانية" للسلاطين العثمانيين كانت إلى حد كبير هي السببَ في أنهم ما زالوا يَحظَون حتى اليوم بالتقدير والاحترام في تركيا، وأنهم ما زالوا يُذكرون بالدعاء والرحمة في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، وأنهم مازالوا معروفين على نطاق واسع في البلقان والشرق الأوسط وإفريقيا والشرق الأقصى ووسط آسيا. وقد تكون إنسانيتهم أيضا هي التي ساعدت على صون التراث العثماني، بينما حُكم على إمبراطوريات وممالك مشابهة بأن يُحط من قدرها بعد زوالها.

في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر كانت الدولة التي يحكمها السلاطين العثمانيون أقوى دولة في العالم. ولكن رغم أن العثمانيين كانوا يَحكمون عددا كبيرا من الشعوب في مناطق تمتد عبر ثلاث قارات، فإنهم لم يستغلوا رعاياهم على الإطلاق، سواء بأساليب مادية أو معنوية. وحقيقةُ وجود القليل جدا من الناس الذين يتحدثون اللغة التركية اليوم في مناطق مختلفة من البلقان أو الشرق الأوسط-وهي المناطق التي ظلت تحت الحكم العثماني لأكثر من أربعمائة عام- تُظهر بوضوح عدمَ وجود أية محاولة للهيمنة الثقافية. وفي المقابل يتكلم الناس في جنوب آسيا وفي إفريقيا، على سبيل المثال، اللغات الغربية

بشكل واسع، تماما كما يتكلمون اللغات الأصلية في تلك المناطق، وهذا دليل إضافي على الاختلاف الملحوظ في الأسلوب بين العثمانيين والقوى الأوروبية الاستعمارية، وعلى التسامح الذي كان يعيش فيه رعايا الدولة العثمانية مقارنة بفترة الاستعمار الغربي.

وقد سمح شكل الإدارة العثمانية بوجود عدة أنظمة قانونية مختلفة جنبا إلى جنب، بحيث كان لكل مجموعة مَحاكمها الخاصة تصدر فيها الأحكام وفقا لقوانين هذه المجموعة. كما سمح هذا النظام بتعايش ناجح للغات والأديان والطوائف المختلفة لمئات السنين، وهذا رقم قياسي لا يكافئه إلا القليل جدا من الديمقراطيات "المتقدمة" في عصرنا الحالي. وقد يفوق أيضا التركيبُ الثقافي والقانوني الذي أنجزه العثمانيون الأنظمةَ المعمول بها في كثير من الدول المعاصرة لها.

لقد نجحت الإدارة العثمانية في مَأْسَسَة التناغم الاجتماعي والعدالة الاجتماعية والوعي البيئي. وظل العديد من المؤسسات الخيرية التي أقامها السلاطين وأشخاص آخرون من الأسرة العثمانية قائمة حتى وقتنا هذا. فمجمَّع المباني الذي كان يسمى (külliye)(مُجَمَّعَات)، والذي كان يتركز حول المساجد، ويَضُم المدارس والكليات والمكتبات ومنشآت الرعاية الصحية وأسبلة المياه العامة والحمامات العامة والملاجئ والمطابخ العامة للفقراء، بالإضافة إلى الخانات التي كانت تستضيف المسافرين والإسطبلات لخيولهم..كان يُبنى في كل ركن من أركان الأراضي العثمانية، وبخاصة في الحرمين، وكان يجري تمويل كل هذا من قبل المؤسسات الخيرية من هذا النوع، مما يعطي مثالا حول كيفية قيام الدولة بمسؤولياتها الاجتماعية بشكل مثالي. ولقرون طويلة كانت جميع هذه المؤسسات تقدِّم الخدمات للفقراء والمسافرين والطلاب من دون مقابل. وتبيّن هذه الخدمات الخيرية والأعمالُ الاجتماعية، التي كانت تُقدَّم للناس، كيفيةَ فهم العثمانيين للإسلام، وكيف أن الإيمان كان يُطبَّق على أرض الواقع في العالم العثماني في ذلك الوقت.

عندما كان سلاطين الدولة العثمانية يقومون بتأسيس حضارتهم في المناطق التي فتحوها كانوا يتعاملون باحترام مع ما تبقى من آثار الحضارات القديمة في تلك المناطق، وكانوا يحاولون دومًا تكييفها والبناء عليها، في محاولة للحفاظ على "الميراث المشترك" للبشرية. وهذا العمل منهم يحظى الآن بالاعتراف والتقدير.

ويرجع الفضل في بقاء الكثير من مباني العصور الرومانية والبيزنطية إلى الاحترام الذي أظهره العثمانيون تجاه تلك الحضارات.

وعند المقارنة بين القصور في الدولة العثمانية وبين نظائرها الأوروبية والآسيوية يتجلى لنا أن السلاطين العثمانيين عاشوا حياتهم بطريقة أكثر تواضعا. ورغم هذا فإنهم تمكنوا من الحكم على منطقة تمتد عبر ملايين الكيلومترات المربعة من خلال غرفة صغيرة تسمى "غرفة المجلس السلطاني" (قُبَّه آلْتِي). والواقع أن السلام لم يسُدْ بشكل دائم في أراضي الدولة العابرة للقارات -التي امتدت من جبال البلقان إلى القوقاز ومن الصحراء الكبرى إلى الشرق الأوسط- مثلما ساد إبان حكم الدولة العثمانية لهذه الأراضي. وينبغي على من يدرسون الاضطرابات القائمة اليوم في هذه الأماكن أن يدرسوا بتمعنٍ حكمَ العثمانيين المسالم لتلك المناطق طوال عدة قرون.

وبعكس ما يزعم البعض لم يقم أي سلطان بالعمل ضد دولته أو شعبه أو دينه الذي يعتنقه. واستمر هذا التقليد من الوفاء حتى بعد الهجرة الجبرية للسلالة العثمانية في أعقاب إلغاء السلطنة. وأخيرا لم يقم أي من أفراد العائلة بأي نشاط قد يسبب صعوبات للجمهورية التركية حديثة العهد.

ويعيش عدد من أفراد الأسرة العثمانية خارج تركيا اليوم، بينما يقيم بعضهم في أرض الوطن، والواقع أن عددا كبيرا منهم مواطنون في الجمهورية التركية. وثمة رغبة عامة بين جميع أفراد الأسرة العثمانية أن تكون جمهورية تركيا، التي قامت من رفات الدولة العثمانية، دولة قوية لها صوت مسموع على الصعيد العالمي.

وهذا الكتاب، الذي يحمل عنوان "سلاطين الدولة العثمانية" يعد عملا مهما من حيث إنه يقدم للقراء إسهامات السلاطين لتنمية الأمة الإسلامية. ومن هنا فإنني أقدم الشكر والتقدير للمؤلف صالح كولن ودار النشر "دار النيل".

وأخيرا أود أن أحتفي بكل إجلال واحترام بذكرى أسلافي وأجدادي الذين "حلوا ضيوفا" على العرش العثماني لفترة تمتد من عام ١٢٩٩ وحتى عام ١٩٢٢.

عثمان عثمان أوغلو

سليل الأسرة العثمانية وحفيد السلطان مراد الخامس

بَيْلَيرْبَـيِي، ٢٩ مايو/أيار ٢٠٠٩

تمهيد

إن اعتلاء عرش دولة مثل الدولة العثمانية، التي امتدت أراضيها في ثلاث قارات وقدرت بأكثر من ٢٠ مليون كيلومتر مربع، كان مسؤولية ضخمة أثرت في العالم بأسره في ذلك الوقت. ولا يستطيع أحد أن يعرف مسؤوليات هذه القوة العظيمة أفضل من أفراد الأسرة العثمانية، والسلاطين بشكل خاص.

ولا يهدف هذا العمل إلى فحص عمل السلاطين السياسي فقط، ولكن أيضا دراسة الجهود التي بذلوها في إثراء الثقافة الإسلامية، وبشكل أهم، إسهاماتهم في التراث المشترك للحضارة الإنسانية.

لقد منعت صعوبة تقديم جميع السلاطين في النطاق المحدود لهذه الدراسة من مناقشة الكثير من التفاصيل المهمة، وقد اضطُر فريق بحثنا بشكل خاص إلى اختصار بعض الحقائق حول السلاطين الذين حكموا الدولة لأكثر من عقدين.

وقد تم الرجوع في توثيق المعلومات الواردة في هذا الكتاب إلى أحدث الدراسات في هذا المجال. كما قمنا بمحاولة البت في المواضيع المختلف فيها بالرجوع إلى المصادر الصحيحة، غير أن العمل لم يستطع، وهذا أمر مفهوم، أن يعكس جميع وجهات النظر المتاحة. وفي النهاية يسعى هذا البحث إلى مناقشةِ أحداث كبيرة للتاريخ العثماني وتحديد مكان السلاطين فيها.

ومما يميز هذا العمل عن الأعمال الأخرى التي تناولت حكم السلاطين السياسي أنه يحلل مسؤوليات السلاطين المختلفة كأبطال للعالم الإسلامي ويركز على إنجازاتهم كخلفاء.

وتأتي وسائل الإيضاح المرئية في هذا العمل من منظومة واسعة من المصادر الأصلية. وتعطي الأمثلة المنتقاة تأكيدا أكبر على الفنون وعلى إسهامات السلاطين، لكنها تركز بقدر أقل على مشاهد المعارك. وفي هذا الإطار نُشرت العديد من الصور التاريخية المختلفة، إضافة إلى منمنمات وفنونِ حفرٍ تُنشر هنا لأول مرة. كما صورت بعض الأعمال الفنية الباقية من هذا العصر وأضيفت إلى هذه المجموعة، وهذا كله يوضح تفاصيل جمال هذه الأعمال وجاذبيتها التي قد لا يمكن فهمها من النظرة الأولى.

وأخيرا أود أن أعبر عن شكري وتقديري للأشخاص الكُثر الذين عملوا على إنجاز هذا الكتاب. ومن الواضح أنهم لم ينالوا التقدير الذي يستحقونه، لأن اسمي هو الاسم الوحيد الذي يظهر على الكتاب. ولذلك فإنني أود أن أعبر عن امتناني بشكل خاص للبروفيسور "إيلبر أورْتَايْلي"، مدير قصر "طوب قابي"، الذي أَطْلعني على الكثير من التفاصيل غير المعروفة حول القصر، وعن العلاقات بين السلاطين وأسرهم، وأن أشكر أيضا "شاه زاده (الأمير) عثمان عثمان أوغلو" أفندي، سليل النسب العثماني، الذي عَرَض بكرمٍ مجموعتَه الفنية

العائلية، وأَطْلعني على خبرته المتمرسة عن تقاليد الدولة العثمانية والجوانب غير المعروفة حول سلاطين العصور المتأخرة، وبخاصة جده لأبيه السلطان مراد الخامس وجده لأمه السلطان محمد رشاد. كما أود أن أشكر أيضا الدكتور "رشيد هايْلامَازْ"، رئيس تحرير مجموعة كَايْنَاكْ للنشر، الذي ساند المشروع بشكل مستمر طوال أكثر من عامين، حتى نشر هذا الكتاب. كما أتوجه بالشكر لموظفي قصر "طوب قابي" لمساهماتهم الكريمة والغنية والواضحة، وجامعة إسطنبول، والمصوِّرين الذين أَضْفت رؤاهم ولقطاتهم اللونَ والروح على هذا الكتاب.

صالح كولن

إسطنبول في يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩